الفنون الإسلامية

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد الخامس عشر (١٩٩٣ م / ١٤١٤ هـ)

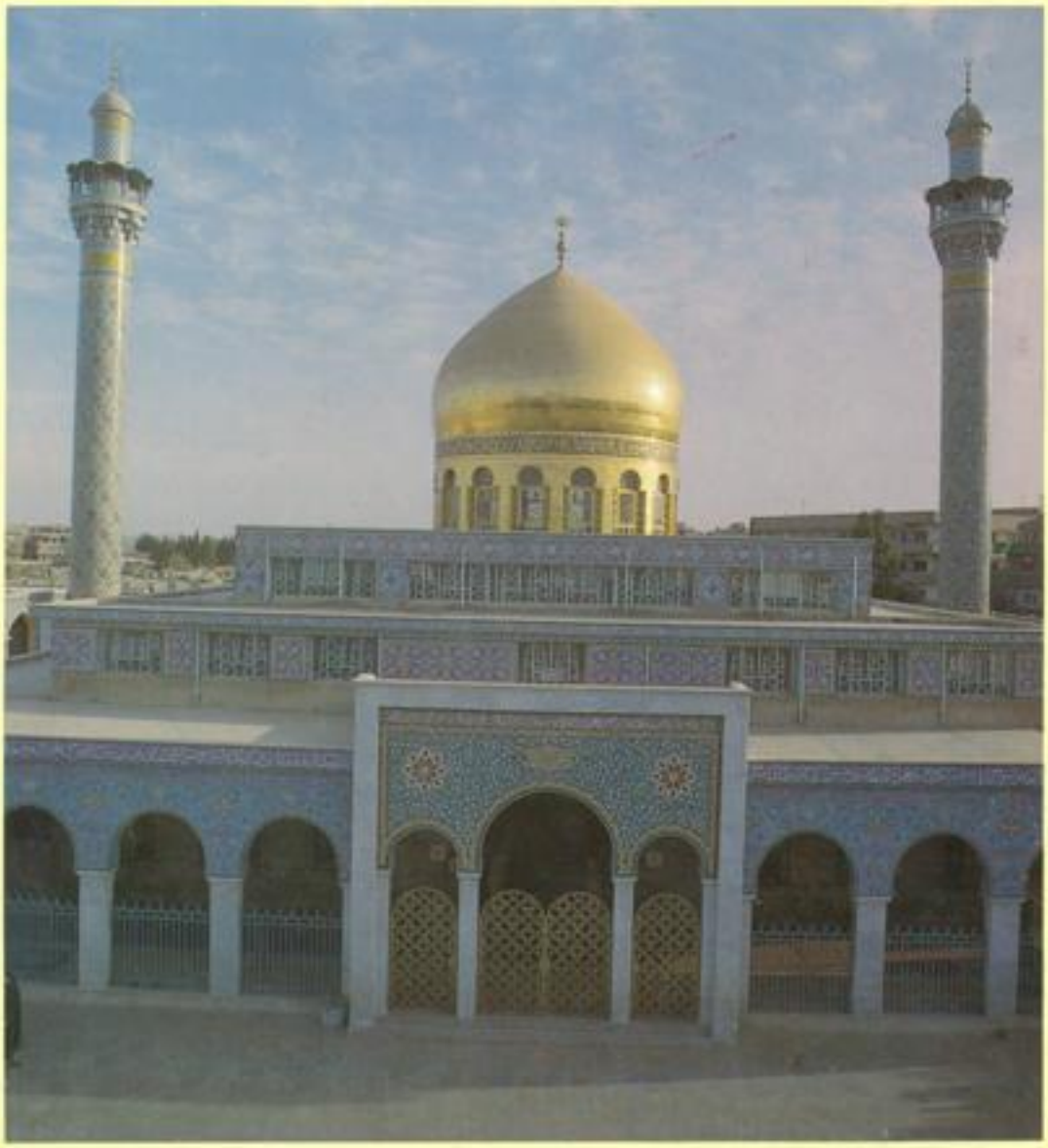

المشهد الزينبي الشريف بدمشق، الشام

الإمامة

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

مؤسس

أكاديمية الكوفة

هولندة

المركز العالمي لعلوم أهل البيت عليهم السلام

المراسلات

KUFA ACADEMY
POSTBUS 1113
3260 AC OUD - BEYERLAND
NEDERLAND
www.aimawsem.net
www.shiaparlement.com

من القسم المخطوط من كتاب (هكذا عرفتهم)

للاستاذ جعفر الخليلي*

كيف عرفت السيد محمد جمال الهاشمي ؟

١٩١٦ ـ ١٩٧٧

جعفر الخليلي

في أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر يدخل النجف شاب يرتدي قباء أزرق اللون وهو قماش وطني ترتديه الطبقة الروحانية ، المتواضعة ، وكان يعتمر عمامة سوداء ، لقد جاء من مدينة (گلپايگان) من أعمال مدينة أصفهان ، يحدوه الشوق إلى طلب العلم والتفقه في الدين وكان اسمه السيد جمال (الگلپايگاني) ، ويبحث له عن مأوى ، وعن أستاذ يواصل عنده دورسه التي كان قد بدأها بمدينة أصفهان .

أما الاستاذ فليس وجوده بالأمر العسير في النجف ، فهناك عدد كبير يدرِّسون الأدب ، والفقه ، وسائر العلوم بالمجان ، وكانت النجف تستعيب تقاضي الأجور عن التدريس ، ولا يرد أحد من الأساتذة طالب علم عن تدريسه إلا إذا كان غير واجد فراغاً من الوقت عنده ، وعلى هذا فقد كانت صعوبة الطالب الغريب في النجف منحصرة بالمأوى ، وبالمعيشة ، ولم تكن المدارس الدينية في النجف يومذاك بكافية لسكن الغرباء الذين يأتونها من كل الأقطار الشيعية للدراسة ، أما المعيشة فكان يضمنها الطالب مما يصل إليه حوالة من أهله على أيدي بعض التجار وبشيء من المساعدة من مراجع الدين التي تصل إليهم بعض الأموال بصفة (حقوق) شرعية من خمس وزكاة ، و(حق امام) فينفقوا منها على مستحقيها بسبب غنى أهليهم فيسكنون أحسن البيوت ويأكلون ويلبسون أحسن المآكل والملابس ، وكان بجوار بيتنا مدرسة باسم مدرسة (الايرواني) رأيت بعيني كيف كان بعض طلابها يتركون قشور

---

* قدمت هذه المادة الاستاذة فريدة الخليلي

السيد محمد جمال الهاشمي (قدس سره)

(الرقي) والبطيخ كما يتركها البطر الشبعان وفيها بقية صالحة للأكل من اللب ، كانوا يتركونها عند باب المدرسة من الخارج وعلى دكتي الباب وفي ظنهم أن الحطّابين والسقّائين سياخذونها لتأكله حميرهم، ولقد رأيت جاراً لنا وهو من طلاب العلم كان يحمل هذه القشور إلى بيته وحين رآني قال لي دون أن اسأله أنه يأخذ هذه القشور ليحتفظ بها لحمير السقاء الذي اعتدنا ان نشتري منه الماء فلم أصدق وأنا صبي حينذاك قوله فقد رسخ في ذهني أنه يأخذها ليتمتع هو وأهل بيته بما بقي من اللب ، وكان هذا الظن مني نتيجة ما كان يشيع بأن بعض البيوت ومنهم بيوت الطلبة الفقراء يحملون من الشارع وفي خفية من الناس ما يتركه الأغنياء خارج بيوتهم مما يفضل من الطعام الصالح للأكل .

ولم يكن السيد جمال الگلپايگاني إلاّ مِنْ أولئك الطلاب الفقراء، وقد استعانَ بقليل مما زوده به أهله وبعض معارفهم بمدينة گلپايگان لكي يصل إلى النجف ووعُد منهم بأن لا ينقطعوا عنه كلما تيسّر لهم ذلك ، ولكن ذلك لم يتيسر فيما بعد إلا قليلاً بل وأقل من القليل ، وكان من الايمان والقناعة ما يستعين بها على دنياه وعيشه المدقع .

أما الأستاذ فقد وجده في الأسبوع الأول، وأما السكن، فقد كان في خان من خانات محلة المشراق كان الزوار الذين يأتون من إيران يحلّون به هُم وحميرهم ، وقد كان أول نزول السيد جمال فيه ولا أدري كم بقي فيه حتى رضي أحد طلاب مدرسة الصدر أن يشاركه غرفته ، كذلك لا أدري كم بقي فيه حتى ضاق صدر صاحب الغرفة وبرم به وسأم منه فقد كان السيد جمال ينهض في السحر ويبدأ بالصلاة والعبادة حتى الفجر ، لذلك صارح هذا الشيخ السيد جمال وطلب منه أحد أمرين ، إما أن يترك التعبد في السحر ، وأما يجد له محلاً آخر ، لأن قيامه لصلاة الليل والتعبد وقراءة الأدعية ـ وإن كانت بصوت خافت ـ مما تقلق راحته وتذهب عن عقليه النوم لا سيما وهو يقضي الشطر الأول من الليل بالمطالعة ، ثم إن عليه أن يجلس في الفجر أو قبل شروق الشمس بقليل ليصلي ويذهب لزيارة ضريح الإمام علي ومن هناك يمضي إلى شيخه (أستاذه) ـ وكانوا يسمون الأستاذ بالشيخ ـ لينضم إلى الحلقة التي تتلقى دروسها على ذلك الشيخ .

وأعطى السيد جمال الحق لصاحب الغرفة ، ولما كان لا يستطيع أن يترك التعبد والصلاة في السحر طلب من صاحبه أن يمهله أياماً لعله يجد له مأوى يأوي إليه ورواح يستنجد بزملائه لعلهم يدلّونه إلى مأوى يأوي إليه . وفكّروا معه طويلاً ، وأخيراً اتصل الخبر (بشيخهم) واستنجد هذا الشيخ بشيخه الذي يدرس عليه ، لأن لكل شيخاً ولا ينقطع هذا إلى أن يبلغ الطالب مرحلة (الاحتياط) و(الاجتهاد) حيث يكون بمقدوره أن يستنبط الأحكام وأن يفتي الناس ، وهي مرحلة ليس بوسع كل أحد أن يبلغها عند الشيعة لأن مقدماتها من العلوم العربية ، والمنطقية وعلم الكلام (الفلسفة) والحديث ، والتفسير ، وعلم الرجال والرقوف على تراجمهم طويلة وعويصة جداً وقد لا تكون لها نهاية ! ! .

وكان لشيخ الشيخ هذا ـ ولم أعرف اسمه ـ شأن ومكانة استطاع بهما أن يحمل خادم المدرسة على أن يخلي له المخزن المجاور لغرفته والذي لم تزد مساحته على أربعة أمتار أو خمسة ، كان يخزن فيها الخادم بعض حاجاته من الفحم ، والتمر ، والبصل وما كان لديه من بساط ممزق ، وما كان يحصل عليه من طلاب المدرسة ، من الأحذية ، والأباريق العتيقة ، وغير ذلك ، وهي غرفة مظلمة ليس فيها كوة

يدخل منها الضياء والهواء ولا بد وأن يكون هذا الشيخ قد منح الخادم بعض النقود فضلاً عن استعماله جاهه عند وكيل المدرسة .

والحصول على مثل هذه الغرفة لواحد مثل السيد جمال يعتبر فوزاً كبيراً في تلك الأيام التي كانت النجف تموج بطلاّب العلم الغرباء لا سيما في عهد الشيخ الأنصاري وما بعده ، حتى لقد قدر الناس عدد طلاب العلم في أيام الشيخ (الآخوند) في العقد الأول من القرن العشرين بعشرة آلاف طالب في حين لم يزد عدد سكان النجف من أهلها على ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف نسمة حينذاك ، وقيل أن عدد الذين يلتفّون حول منبر (الآخوند) في كل يوم لاستماع محاضراته لم يقلّوا عن ألف طالب ، وكل هؤلاء من المرشحين للاجتهاد في يوم ما ، وكان من أشهرهم السيد أبو الحسن الموسوي الاصفهاني ، والميرزا حسين النائيني ، والشيخ ضياء الدين العراقي ، وغيرهم ، وقد صاروا من المراجع الكبار فيما بعد ، لذلك كان الحصول على غرفة مثل هذه لواحد مثل السيد جمال نعمة كبرى في ذلك الوقت .

وما أسرع ما عرف السيد جمال بين أقرانه بالجد والانكباب على المطالعة وبالقدسية التي كان من علاماتها كثرة صلاته ، وصيامه ، وانقطاعهِ إلى الله ، وقناعته بالكسْرة من الخبز ، ولم يزل حتى بلغ المرحلة التي تمكنه من حضور دروس (الآخوند الشيخ ملا كاظم الخراساني) الذي سمي بالآخوند وهي تعني (المعلم) وصارت للسيد جمال حلقات للدرس ، وانتقل بمحض إرادة تلاميذه وزملائه واهتمام (الآخوند) به وليس بمحض إرادته هو وذلك لزهده ونسكه وقناعته، لقد انتقل إلى بيت مستقل وتزوج .

وكان من فضل الله عليه أن تزوج امرأة صالحة مؤمنة ، لم تقنع بفقره فحسب وإنما راحت تستعين بالمغزل فتغزل الصوف وتبيعه، وتخيط الثياب بالأُجرة ، وتقيت مما تحصل عليه من كدّ يدها زوجها وأولادها ، وقد ضربت أروع الأمثال للمرأة المخلصة الوفية الصالحة .

وكان السيد جمال يحضر دروس الميرزا النائيني بعد وفاة (الآخوند) في حين كان هو والنائيني من تلاميذه الآخوند ، وقد كان النائيني يقدر منه هذا التواضع ، ويطلق عليه اسم (الاقا) وهو السيد والوجيه ويقوم له أن حضر دروسه وهو ما لا يفعله مع غيره ، ولقد سمعت بإذني من بعض الناس ملامة السيد جمال على اندماجه بين طلاب الميرزا (النائيني) مع بلوغه درجة الاجتهاد، وعدم احتياجه لمثل هذه المحاضرات ، ولكن من الانصاف علينا أن نقول أن النائيني كان منفرداً في وقته بعلم الأصول، وان السيد جمال وانْ كان قد بلغ غاية التواضع فان حضوره مع دروس النائيني لم يكن إلا للافادة ثم هو بعد ذلك لا يهمه أن يكونَ مجتهداً أو يكون مرجعاً من المراجع الدينية ، وكل همه الركض وراء الشريعة وبلوغ أغوار النصوص وفلسفتها ، وكان يلذه أن يحرم نفسه من ملذات الحياة في سبيل الوصول إلى الحقيقة .

ووغيت أنا ، وبيت السيد جمال يبعد عن بيتنا ببيتين فقط ، وابنه الكبير السيد محمد والذي صار بعد ذلك يسمى بالسيد محمد جمال الهاشمي باعتباره علوياً هاشمياً وان لم يسم أبوه بهذا الاسم ، وقد كان السيد محمد صبياً يلعب مع الصبيان في الطريق ، وكنت أراه في أغلب الأوقات وحين خروجي من البيت أراه أكثر مما كنت أرى أباه السيد جمال وقد رأيت أمه غير مرة في بيتنا ، وعلمت ان صلاتها ببعض الأسر كانت صلات مودة واحترام ، وعلى الأخص مع بيت (الرفيعي) وهذا البيت مشهور بطبخ

حلاوة ، وهي حلاوة اختصت بها النجف دون جميع مدن العراق ، وعرف بصنعها آل الرفيعي اكثر مما عرفت بصنعها البيوت الاخرى وزعموا ان بيتنا نحن مما يجيدها هو الآخر ، وإذا صحّ هذا فالفضل يعود الى أم السيد محمد جمال الهاشمي لأنني أعتقد ان هذه السيدة تحسنها أكثر من بيت الرفيعي أنفسهم ، ولا بد انها هي التي علمتنا صنع هذه الحلاوة ، والحق انها كانت امرأة متفننة في كل ما ينبغي ان تتفنن به ربة البيت العبقرية ، فهي التي كانت تشتري لزوجها وأولادها ألبستهم المناسبة ، وهي التي كانت تخيطها لهم وهي التي تشتري لهم الأحذية ، ولعل من العجيب ان نعرف انها هي التي تشتري القماش والقطن فتنفش القطن وتصنع منه اللحاف والمتكا ، والفرش الذي ينام عليه الأطفال .

وتوفي الميرزا النائيني ، ويتوفى السيد ابو الحسن ويُصبح السيد جمال من المراجع الدينية الكبرى ، ويقبل عليه المقتدون (المقلِّدون) بكسر اللام من كثير الجهات ، ويزيد الوثوق به كون أن الأوقاف الدينية في مدينة (قم) التي يجب ان يتولاها أشهر المجتهدين وأعلمهم قد عهد أمرها اليه بتأييد من السيد البروجردي الذي كان يعتبر يومذاك بمثابة أكبر المراجع الدينية .

ويشتري بعض مقلدي السيد جمال بيتنا في محلة الحويش ويقدمونه هدية له فينتقل اليه ويختار منه لنفسه أحط غرفة وأضيقها في البيت ويترك الغرف الوارفة لأولاده ، فكأنه بذلك يريد أن لا تغيب عنه ذكرى تلك الغرفة الصغيرة المسخمة بالفحم في المدرسة وهكذا عاش بها بقية أيامه .

ويأتيه من يطلب بركته فلا يدري كيف يكون منح البركة فيعهد بذلك الى زوجته ، وهي تعرف بماذا تكرم هؤلاء ؟ وماذا تهدي لكل منهم وأذكر أني جئته عائداً له في احدى نوبات مرضه ، وقد تفضل فسمح لي بالدخول عليه في حين اعتذر أولاده للزائرين الذين كانوا على باب الديوان ، لأغراض شتى ، ومنهم من كان يحمل مبلغاً من (الحقوق) لتسليمها له وقد اعتذر أولاده لهم بالوعكة التي تحول بينهم وبين رؤيته، وكثيراً ما كانت تعتريه هذه الوعكة كنوبة قلبية أو روماتزم في رجليه وقد دخلت عليه وتمنيت له الصحة والعافية ، وحين كنت أصدر جريدة (الهاتف) كان مكتب الهاتف في مدخل الشارع الذي سمي ـ ولا يزال ـ باسم شارع (الهاتف) وكانت احدى مقابرنا قريبة من دار الهاتف ، وهي غير المقبرة المتصلة بمدرسة الخليلي الكبرى في وسط المدينة ، وقد بنيت المقبرة التي بالقرب من دار الهاتف على طراز مقابر القاهرة ، أي أنها كانت أشبه بالبيت ذي الغرف المتعددة ، وكان البعض ممن يظنون ان بعض الاستثابة حاصلة في زيارة قبر جدي الحاج ملا علي الخليلي فيزورونه ويقرؤون له الفاتحة وقد ينذرون له النذور ، وكنت أرى عصر بعض الأيام وأنا داخل مكتبي أو أنا خارج منه السيد جمال وهو قابع بعمامته يمر من أمام مكتب الهاتف ، كشخص مجهول لا يدع أحداً يحتف به ويمشي خلفه ، فيدخل الى مقبرتنا ليقرأ الفاتحة لجدي لأبي ، ثم علمت بعد ذلك انه كان يفعل هذا في عصر كل خميس ، ولم ينقطع عن هذه الزيارة إلا في أيام مرضه ، وحين بلغ المرجعية ، كان يجهر بأنه لا يريد أن يصحبه أحد الى قبر الشيخ ، فإن في هذه الصحبة شيئاً من الفخفخة والأبهة وهو يريد ان يزور هذا القبر كدرويش فقير ويصلي عند مدفنه بخشوع .

والدفن في هذه المقبرة مقتصر على بعض الأسرة الخليلية كما ان الدفن في المقبرة الواقعة بجنب مدرسة آل الخليلي الكبرى مقتصرة على فئة اخرى من أسرتنا ، وقد جاء في وصيتي أن أدفن أنا في جهة عينتها من مقبرة جدي ، وأوصيت بأن يُكتب على قبري ما يلي :

هنا يرقد جعفر الخليلي رقدته الأخيرة . .
ولد سنة ١٩٠٤ ومات سنة كذا . .
جاء الى الدنيا وهو لا يدري لماذا جاء . .
وخرج من الدنيا وهو لا يدري لماذا خرج . . .

لقد كبر السيد محمد جمال الهاشمي واعتمر العمامة السوداء ، وكما يفعل أمثاله ، أو كما فعل أبوه ، وانكب على الدروس الدينية ، وكان لا بد له ـ كما ذكرت ذلك في غير هذا المكان من كتابي ـ ان يمر على العلوم العربية وقواعدها وحتى علم المنطق ، والحساب ، لكي يجهز نفسه للدخول في ميدان دروس الفقه والأصول ، والحديث ، وعلم الكلام ، وشرع السيد محمد جمال الهاشمي يدرس العربية ، واكتشف هنا ان له ملكة شعرية فنية زادت من اقباله على قراءة الشعر في مختلف مراحله ، وما لبث ان راح يجرب نظم الشعر ، وينضم الى فئة الشعراء والأدباء كعضو منتسب الى (جمعية الرابطة الأدبية) في النجف الى جانب انضمامه الى الفئة العلمية المنكبة على مواصلة الدروس الدينية .

وصار يشارك في الحفلات التي تقيمها جمعية (الرابطة الأدبية) في بعض المناسبات ، ولا أذكر كيف اتصل بي لأول مرة ، ولعل ذلك جرى عن طريق ابراهيم الوائلي الذي كان يعمل معي في جريدة (الراعي) ، وجريدة (الهاتف) والاستاذ بكلية الآداب ببغداد اليوم .

فقد كان الهاشمي صديقاً حميماً للوائلي وكان كلاهما في المرحلة الاولى من مزاولة النظم ، وقول الشعر ، إلا أن شعر الوائلي كان أصحّ من حيث اللغة والقواعد العربية ، وكان الهاشمي يعرض عليّ بعض قصائده بقصد نشرها في جريدتي ولم أكتمه رأيي فيما كان يؤخذ عليه ، وكان من حسناته بعده عن الغرور فيتقبل النقد ، ويحذف بعض الأبيات ، ويبدل بعض الكلمات ، أو يصرف النظر كلية عن القصيدة ، ولم يلبث حتى صار لشعره نغمة ، وحلاوة بل صار له قراء وأصدقاء يكاتبونه ، ويتبارون وإياه وفي مقدمة اولئك كان الشيخ محمد حسن حيدر نائب سوق الشيوخ في البرلمان .

وامتاز الهاشمي على كثير من الشعراء بحسن الانشاد ، فقد كان لانشاده الشعر في المحافل وقع غير قليل في النفوس لعله كان عاملاً آخر في تجلية شعره وتزويقه ، وله ميزة اخرى قلّما رأيت أحداً امتاز بها مثله ومثل السيد احمد الرضوي الهندي ابن الشاعر الكبير السيد رضا الهندي ، وهي سرعة البديهة في نظم الشعر ، فهو قادر على ان ينظم القصيدة العامرة في ساعتين بل وأقل من ذلك ، وقد يأتي بالمعاني البكر وجميل الصياغة ، ولكن مثل هذه السرعة قد تفقد شعره أحياناً الجودة التي عرفت بها قصائده الاخرى ، لذلك لا يخلو هذا الشعر بسبب السرعة من الركّة حيناً وان جوّد فيه أحياناً كثيرة .

وما لبث الهاشمي حتى صار في المقدمة من صفوة اخوان (الهاتف) فلا يمر عصر يوم دون ان يكون السيد الهاشمي في مقدمة زوار (الهاتف) ونظراً لما كان السيد الهاشمي معروفاً به من طهارة النفس ، والطيبة والظرف وحتى السذاجة التي ترافق أهل القلوب النقية كان السيد الهاشمي محور الحديث من مجالس (الهاتف) ، سواء من حيث هذا الظرف والطيبة ، ومن حيث الشعر والأدب ، إذ كثيراً ما يتحرش به الأدباء ، ويمازحونه فأشاركه أنا في الرد عليهم فيصول بانتصاري له ويجول ، حتى لقد بلغ به إلا أن يكونَ هو البادي بالتحرش فيخسر الجولة أحياناً ويربحها أحياناً أخر ، وأذكر أنه تحرش مرة بالسيد عبد الحسين الحجار ، والحجار هذا خطيب نجفي من خطباء المنابر الحسينية

المعروفين بالظرف وسرعة البديهة ، فقد جاء ذكر البديع ومرّوا في هذا الذكر على (الهجاء في معرض المدح) و(المدح في معرض الهجاء) ورويت لهم انا بيتين كنت قد ترجمتهما من الفارسية في هجاء مشايخ الدين مما يدخل في ضمن (الهجاء في معرض المدح) وهما :

ان يمت من مشايخ الدين شيخ نبتت وردة مكان الفقيد
وقياساً فإن يموتوا جميعاً تفقد ايران جنة من ورود

فتوجه الهاشمي الى (الجحجار) وقال له وأنا الآن قادر على أن أهجوك فتأخذ هذا الهجاء بمثابة المدح إذا كنت مؤمناً ـ ولا شك عندي بايمانك ما دمت خطيباً يرد على لسانك في خطبة مدح الرسول وآل بيته ورثاء سبطه الإمام الحسين(ع) ـ تأن أتول لك :

أنت النعال نعال بنت المصطفى أنت الحمار حمار سبط (الهادي)

فتتقبل قولي هذا ولا تستطيع ان ترد عليه ، بل ان ايمانك سيحملك على الرضا بأن تكون نعالاً لفاطمة الزهراء وحماراً للإمام الحسين(ع) .

فقال السيد الحجار ، لقد صدقت ، وأنا الآخر أستطيع ان أفعل مثل ما فعلت معي فآتيك بالمدح في معرض الهجاء وأقول :

أنت (بوتين) خاتم الرسل طه أنت جحر لناقة السجاد

والبوتين هو حذاء من طراز خاص تغوص فيه القدم ويغوص معها قسم من الساق وقال الحجار ، وأحسب أنك ستفاخر على مضمض منك بأن تكون جحراً تروث منه الناقة التي حملت زين العابدين (السجاد) أسيراً .

واتسعت آفاق الهاشمي الشعرية ، وصار يطرق مختلف المواضيع بشعره ، وكان له في كل عنق من أعناق محبيه وأصدقائه دين ، فلا أذكر أن مناسبة من المناسبات التي تخص اخوانه ومحبيه دون ان يكون لها مكان من شعره لذلك كان من أكثر الشعراء نظماً في باب (الاخوانيات) ومن أكثرهم في نسج عواطفه وأحاسيسه التي يهيّجها وفاؤه بالشعر .

وحين ولد ابنه (حسن) همّ الكثير من أصحابه ان يردوا له بعض الفضل فأقاموا له ندوات عشاء عديدة وأسمعوه الكثير من تهانيهم الشعرية وأرّخ ولادة ابنه بالشعر ، وكان أهم تلك التواريخ أبيات للشيخ محمد رضا المظفر تتضمن بيته منها تاريخ ميلاد (حسن) باليوم ، والشهر والسنة ، ومن المؤسف انني نسيت هذا البيت الذي نشر في (الهاتف) كما نشر تاريخ للشيخ محمد جواد الشيخ راضي بالفارسية تضمن دعابة طريفة ظل يتحدث بها الجميع ولقد جاء التاريخ على هذا النحو ، وقد نسيت أوله وختم التاريخ بقوله :

(بر جمال محمد صلوات بفرستيد)

ومضمون هذا القول هو انه لا ينبغي ان تنسى الصلاة على جمال محمد ، وإذا حسبت الحروف بحساب الجمل حصلت على التاريخ المذكور ، ويغلب على ظني انني أوردت ذكر التاريخ في جزء آخر من (هكذا عرفتهم) .

وحين انتقل السيد محمود الحبوبي ، وصالح الجعفري الى بغداد احتل السيد محمد الهاشمي المقام المرموق الأول في عالم الشعر في النجف ، وفي النجف عشرات من الشعراء المجودين ، ولكن لم يبق في

تلك الأيام من هو اكثر من (الهاشمي) نظماً للشعر وأكثر إجادة بالنسبة لكثرة شعره ، ولو أُتيح لشعره ان يجمع ويُنشر لألّف ديواناً لا أحسبه يقلّ عن بضعة أجزاء من الشعر السلس الرقيق الجيد وفي هذا الديوان جمع صوراً جلية عن مجتمع النجف وتاريخاً حافلاً لمجالسها ، وكانت تنعم به النجف وتشقى ، فقد حكاها الهاشمي في مختلف المناسبات ، من مباريات ومساجلات شعرية ، وتهاني بأعراس ومواليد ، وتعازي بوفيات ودواوٍ ، وأحاسيس بما كانت تختلج به نفوس الناس في كل طارىء من الطوارىء العامة ، وتصوير لحياة الناس ، في أعمالهم ، ومجالسهم وأنسهم ، ومرحهم ، وألوان من دعاباتهم ، ومراثيهم وأحزانهم ، وكل هذا مصور في شعر (الهاشمي) أصدق تصوير لا سيما إذا عرف القارىء المناسبة التي حملت الهاشمي على نظم تلك القصيدة ، على غرار ما فعل سعيد العريان في (حياة الرافعي) وما فعل مصطفى علي في شرح (ديوان الرصافي) .

ومعظم شعر الهاشمي منشور في جريدة (الهاتف) وكان يعد نفسه ويعده القراء من تلاميذ (الهاتف) ومن الذين تأثروا به وان الكثير من شعره ليتضمن هذا بل ويفاخر به ، فقد كان ملازماً للهاتف ملازمة الظل كما ذكرت ولم ينقطع عن حضور مجلسه ، وكثيراً ما جمعته مجالس الأصدقاء بي وعلى الأخص مجلس الشيخ قاسم محي الدين في أغلب الليالي ، وقد رويت قصة سرقتنا خروف وكيفية ذبحه وأنا أعرض لجانب من حياة الشيخ قاسم محي الدين في الجزء الأول من (هكذا عرفتهم) وكثيراً ما تعرضت للسيد محمد جمال الهاشمي في الهاتف جاداً أو هازلاً وحين حج بيت الله حجته الاولى في الطريق البري تصورته فوق جمل من هذه الجمال التي تنوء بثقله فقد كان بديناً يزن ما فوق المائة كيلو يومذاك ، وحين تقدمت به السن زاد وزنه أكثر .

وتستعيب ان أتقمص روحه فأصف شعوره ، وأحاسيسه والجمل ينوء به فيتمايل الى الأمام والى الخلف ، العمة السوداء الكبيرة كانت فوق رأسه كالعلم علامة لقطار الابل ، وقافلة الحجاج الذين يأتمون به فيتابعونه وتصورت ما كان يجري على لسانه من أشعار الجاهلية ، وهو في تلك الفيافي والصحارى ، ونشرت ذلك في احدى افتتاحيات الهاتف ، فكان لهذه المقالة صدى في الأوساط الأدبية في النجف ، ومن المؤسف ان تباع الهاتف بسنينها العشرين على جامعة شيكاغو فلا تصل يدي اليها لأنقل ذلك المقال الذي نشرته فيها هناك ، ولكني استطيع ان أنقل شيئاً من ارجوزته التي بلغت ألف بيت من رحلة الحجاز الثالثة أو الرابعة فقد حجّ الهاشمي عدة مرات ، ولم تكن هذه الارجوزة هي الارجوزة الوحيدة وإنما كانت له أراجيز جمة وفي مواضيع مختلفة حتى في الفلسفة ، وعلم الأخلاق الى جانب أشعاره وقصائده التي تعد بالمئات ، وفي رحلة الحج هذه التي استقل فيها الطائرة يقول الهاشمي في بعض ما يقول :

سارت على اسم الخالق المعبود ... قافلة الايمان والتوحيد
سارت تحج الكعبة الغراء ... بحب آل أحمد تلوب

وقد جاء في وصف الطائرة ما يلي :

تحركت كأنها الشاهين ... ومن حراكها لنا سكون
دارت بنا في ساحة المطار ... كالليث إذ يصول في تزءار
ثم اعتلت للجو وهي تزأر ... كأنها العقاب حين يذعر

الى أن يقول في وصف الطيارة :

وكانت الطيارة الجبارة تصعد بي بطاقة قهّارة
فالجو في الستين تحت الصفر وهو خيال لم يذقه فكري
لكن وضع الجو فيها ما اختلف فكل شيء في نظامه وقف
لا الضغط في دمي ولا الرجفة في جسمي ولا الحياة في تعسف
كنت بها كأنني على الثرى لا أشتكي ضيقاً ولا تذمرا
طبيعتي طبيعتي الأصيلة آفاقها رائعة جميلة

الى أن يقول :

حتى قصدنا مكة المكرمة في موكب شاراته محتشمة
وحينما لاحت حدود الحرم واستيقظت منها قلوب النوّم
فبادر الركب اليه مسرعا وكل فرد فيه من شوق دعا :
(لبيك ان الحمد والنعمة لك لبيك ان المجد والرحمة لك)
نخلع عن أجسامنا الثيابا إذ لم تزل لوعينا حجابا
هي القشور أضحت اللبابا هيا أمِطْ عن وعيك النقابا
لتظهر الحقيقة الخفية وتلمس الماهية النورية
تبعدنا مظاهر الحياة في زيفها عن الجمال الذاتي
ما أنا في الحياة إلا بشر لكل ما أحبى به مفتقر
عبد فلا أملك رجلي ويدي بل كل ما عندي ملك سيدي
فكل آثاري اليه تنسب في بعثها عني هو المسبب
ما كنت إلّا عَدَماً لولاه أوجدني بأمره الإله
شغلني عن وعيها التشاغل بعالم لذاته حبائل
تصدّني في وصفها عن واقعي وتستزيد نحوها مطامعي
رباه يا رباه إننا بشر عن وعي واقع الأمور نقتصر
تجذبنا الظواهر المزبرجة عن واقع نيرانه مؤجّجة
وحينما أيقظنا الايمان جئنا وكل ما بنا لسان :
(لبيك لبيك فلا شريك لك لبيك لبيك فلا مليك لك)
أحرمت عن ما ثمن تجردا وصرت عبدا مذ رأيت السيد
وهكذا تجرد الانسان لما طمى في وعيه الايمان .. الخ

هذا بعض ما اجتزأته من هذه الارجوزة التي يتناول فيها الهاشمي وصف مناسك الحج ، وتأثيرها في النفوس الواعية ، وهي وإن لم تصلح لأن تكون من نماذج شعره ، إذ أن له شعراً ، يتصف الكثير منه بالعذوبة والرقة ، ولكن هذه الاجوزة تصلح ان تصور جانباً من ايمانه ، والتجائه الى الله تعالى .

* * * * *

وبالاجمال : فقد كانت علاقة الهاشمي (بالهاتف) وصاحبه علاقة وطيدة يرجع تأريخها الأول الى أول مزاولته الشعر ، والى أول استعانته بي فيما ينبغي ان يثبت من القصيدة وما ينبغي ان يحذف ، وان تهذيبي لشعره ، ونقده لما يستوجب النقد من حيث اللغة والسبك لا يعني انني كنت أشعر منه وأقدر على نسج القصيدة ، إذ ان هذا شيء آخر ليس له دخل في النظم .

أما رؤيتي للهاشمي وهو يلعب مع الصبيان بالقرب من بيتنا فلا يحسب لها حساب ، ولا تعد تاريخاً لمعرفتي به .

والذين يحملون اسم محمد الهاشمي من اهل العلم والأدب عرفت ثلاثة منهم في العراق ، كان منهم محمد الهاشمي الحاكم بمحاكم العراق وصاحب مجلة (اليقين) والشاعر الذي قام بترجمة رباعيات الخيام الى العربية بالشعر وعرفت محمد الهاشمي الدكتور المختص بالتاريخ ، والاستاذ بكلية الآداب من جامعة بغداد وهو يقربني بقرابة غير بعيدة ، ثم السيد محمد جمال الهاشمي الشاعر والعالم الروحاني ، والغريب ان هؤلاء المحمدين الثلاثة لم يجمع بينهم العلم والفضل والأدب وحسب ، وإنما تجمع بينهم النسب فهم سادة علويون هاشميون ومن نسل الإمام الحسين(ع) .

وللهاشمي مجاميع من الشعر المخطوط اختار منها أجود ما قرأ من عصر الجاهلية الى القرن العشرين واحتفظ بها في أجزاء متعددة فيها أخبار الخيار مما قرأ ، فلو تهيأ له ان تطبع لكانت أهم مصدر يعتمد القارىء فضلاً عن الشاعر للمنتجات الشعرية في مختلف العصور والميادين ، لا سيما وان الجامع لهذه المنتجات شاعر من ألمع الشعراء في الرقة ، والانسجام وجودة الصياغة ، بالرغم من ولعه بالفلسفة فقد أيقن رسائل الفيلسوف الملا صدرا ، وولع بقراءه الفلسفة الحديثة ، وقلّما سلم ، شعر الشعراء المولعين بالفلسفة من التعقيد ، والعبارات المبهمة ، ومن هذا القليل كان السيد محمد الهاشمي ، الذي يفيض شعره رقة وعذوبة ، وسلاسة .

والمعروف ان الفلسفة قد تترك في نفس متتبعها وقارئها في الغالب شيئاً من الضيق أو الانقباض ، والابتعاد عن الناس ، وقلة الكلام ولكن الهاشمي كان على النقيض تماماً ، فقد كان كثير الكلام ، وكثير المزاح والدعابة وكثير الاختلاط بالناس حتى لقد كان يتقبل ان يكون موضوعاً للنكتة وان كانت جارحة ، ثم انه من صفاء النفس وطهارة القلب ، ان باطنه كظاهره فهو لا يحتفظ بالسر وان كان في ذلك ما فيه من الضرر له أو لغيره ، وهو والشيخ قاسم محي الدين على نسق واحد وصفة واحدة.

لذلك كنت أفرغ نصيحتي له إذا جاء يستنصحني في أمر يخصه ويخص أصحابه في عبارة وقول لا أندم عليه إذا ذاع واشتهر ، واني لأذكر انه كان يلاقي زملائه أعضاء (الرابطة الأدبية) يخزه ، وما يجرح شعوره بالرغم من سعة صدره وحلمه ، وكان ينقل لي ذلك فلم أصارحه بوجوب استقالته ، والتحرر من هذا القيد ، وانما كنت أضرب له المثل بالحكايات التي يؤول مغزاها الى ان البتّ في مثل هذه الأمور إنما يعود له وحده ، وهو قادر على أن يعرف ما ينبغي ان يفعل دون الحاجة لنصيحة ناصح ، وهكذا كنت افعل في كل أمر طارىء معه وقع الشيخ قاسم محي الدين ، وأحاذر كل الحذر من أن أنقل لهما خبراً يخص شخصاً من أصحابنا ، فإذا وقع شيء ما أو فلت اللسان أمام أحدهما بشيء اعتذر لكل منهما عما وقع ، ويمتاز اعتذار الهاشمي باعتراف ممزوج بالخجل وطلب المغفرة عما صدر منه بدون دراية ومن غير قصد ، وهو صادق نظراً لصفاء نفسه وطهارة قلبه .

وتزوج الهاشمي ، ولكن زواجه ما لبث أن فشل بسبب فقدان الانسجام بين الزوجين وبين الأم والكنّة ، فزوجته الأم مرة اخرى بهذه الزوجة المثالية التي أنجبت له أولاده من البنين والبنات وبقيت على وفائها له الى أن مات .

وكان الهاشمي قد تقدم في العلوم الدينية وتفرغ لها أكثر من السابق بعد زواجه ، وأصبح له مريدون ، ومتعلقون بإيمانه ، وقد سافر الى ايران غير مرة ، وأفاد بعض الإفادة ممن كان يعرف له إيمانه وتقواه وطهارة نفسه ، وكل هذا جرى قبل أن تؤول الزعامة الدينية الى أبيه ، واستطاع ان يكون في حاشية المرجع الروحاني الأعلى السيد ابي الحسن الموسوي الاصفهاني ، وخصه العالم السيد ميرزا حسن البجنوردي وهو من أصهار السيد ابي الحسن ببعض الرعاية ، كذلك رعاه الحاج اغا حسين ابن السيد ابي الحسن بمحبته فأفاد من تلك الرعاية ما مكّنه من أن يستأجر له بيتاً في (عقد الخمايسي) ثم انتقل الى محلة الحويش .

وكانت للهاشمي مكتبة عامرة أنفق عليها كل ما كان يحصل عليه من الحقوق الشرعية التي يمنحه بها السيد ابو الحسن ، وما يغمره به الآخرون من هذه الحقوق فباع هذه المكتبة ، واستعان بما استطاع ان يحصل عليه ، وببعض الديون فاشترى له بيتاً متواضعاً (بعقد السلام) وهنا آلت المرجعية الى أبيه ، وأصبح في طليعة المجتهدين والمراجع الدينية المرموقين ، فقلّ نظم السيد محمد للشعر حتى كان يصفي إلا من خطرات تدعوه اليه عاطفته ، وهنا بدا يتعين مصيره كروحاني منصرف الى التعمق في الفقه والأصول ، وصار له طلاب يدرسون عليه ، وحلقة خاصة به ، وعلى انه لم ينقطع عن (الهاتف) وزيارته فقد قل نشر شعره حتى لقد سأل عنه كثير من القراء في المدن العراقية ، وعن أسباب انصراف (الهاتف) عن نشر شعره بعد أن اصبح من أبرز شعراء النجف ، ولم يدروا ان الذين يتهجون نهج العلماء الروحانيين تفرض عليهم المقتضيات وأعراف الناس أن ينصرفوا كلية الى العلوم الدينية ، والى الصلاة بالناس ، وما هذا الشعر الذي يروونه لبعض العلماء أمثال الامام كاشف الغطاء وأمثال الشيخ محمد رضا المظفر إلا ألواح من عهد الشباب .

وللسيد محمد الهاشمي مزية كبيرة وهي انه قلما صدر كتاب من العلوم الانسانية الحديثة إلا اقتناه ووعاه كذلك كان لهذه الكتب أثرها ليس في شعره فحسب وإنما في سيرته لا سيما وأن ميوله الاصلاحية ودعوته للاصلاح واعتناقه لمبدأ التجديد كان يجاري به دعاة الاصلاح في ذلك الوقت ، فقد قام في النجف اعلام لم يكتفوا بالتبشير للاصلاح الديني وبث الروح الاسلامية وإنما قاموا بعمل الجبابرة في وسط كانت تسوده الرجعية والعقول المتحجرة الجامدة وكان في طليعة اولئك الشيخ محمد رضا المظفر ، ومحمد الشريعة ابن شيخ الشريعة الذي تولى زعامة الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ بعد وفاة مفجرها الميرزا محمد تقي الشيرازي اللذان قاما بتأسيس جمعية (منتدى النشر) في النجف وتأسيس المدرسة التعليمية التي أصبحت اليوم من الكليات المشهورة في العراق باسم (كلية الفقه) وكان السيد محمد الهاشمي من أعضاء هذه الجمعية وممن مارس التدريس بمدرستها .

وكان السيد محمد جمال الهاشمي يربطه بالشيخ محمد الشريعة المعتمد الروحاني الكبير في الباكستان ، وبالشيخ محمد رضا المظفر في النهضة الاصلاحية في التدريس والوعي والتوجيه ، فظهر اثر هذا الوعي الروحاني والاصلاح العملي الذي قام به هؤلاء الأعلام الثلاثة : الشريعة ، والمظفر في زمن

واحد أقول لقد ظهر أثر هذا الوعي والاتجاه في أفكار (الهاشمي) الذي كان يحمل نفس العقيدة ويساعد على بثّها ، وطفح بها شعره ، ودعوته وطريقة تدريسه لتلامذته ، فقد كان متصلاً بهؤلاء العمداء الثلاثة سنين طويلة ، ومتأثراً بهم ، وعاملاً معهم .

وصلّى الهاشمي بالناس ، ولم يكن المؤتمون به بادىء الأمر إلا القليل من النكرات من الرجال والنساء ثم كثر المؤتمون به بعد وفاة أبيه ، وكنت هنا قد انتقلت الى بغداد ، وقد أحسّ الهاشمي بفراغ كبير في حياته كما يستبان ذلك من رسائله التي لم تنقطع عني ، وقد دعاني غير مرة لزيارة النجف والنزول ضيفاً عليه لا سيما بعد أن باع بيته في (عقد السلام) واشترى بيت (آل شعبان) بالقرب من بيوت آل الحلو بمحلة العمارة ، وشغلني العمل في (الهاتف) جريدة سياسية يومية مع المحافظة على اعداده الأدبية الاسبوعية ، ولكن انشغالي هذا لم يحل بيني وبين ارسال الهاتف له وارسال ما كان يصدر لي من كتب جديدة ببغداد فيبعث لي هو بما يعنّ له من تعليقات نثرية وشعرية ، وقد تلقيتُ منه ذات يوم رسالة يعتب فيها عليّ ابطائي في ردّ الجواب على رسالته وتعذرّ تلبيتي لدعوته وفي ضمنها مقطوعة شعرية يقول في الرسالة :

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، طالت أيام البعاد ، فمنذ سنين وأنا لم أزود من محضرك الشهير ، وإن كنت لم أبتعد عنك بأحاسيسي ومشاعري التي ما زالت تمون حياتي بالحيوية والنشاط ، وكنت أنتظر تشريفك منزلي ، وتزويد عواطفي بمجلسك الذي لا ينسى ، ولكنك ـ ولك العذر فيما تفعل ـ لم تتنازل للسؤال عمن يستلذ بذكرك في كل الأوقات ، وقد تذكرتك وأنا أطالع (كيف عرفتهم) فانتقلت من عالمي الضيق المرهق الى عوالمك التي لا تتناهى آماد لذتها ، وحدود امتاعها وألطافها ، الأمر الذي جعلني أستخف بمتاعبي فأخف الى ارسال هذه السطور ، وتلك الأبيات مخففاً بها عن آلام نفسي ، سائلاً من الله أن يحرسك من الحوادث ، ويرعى ذويك بعنايته ، انه ولي العباد ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» .

محمد جمال الهاشمي

أما المقطوعة الشعرية المرفقة برسالته فهذه هي :

يعيش على ذكراك قلبي فيغتذى ... حياة بها أنسى الحياة وما فيها
فذكراك لي روح توجه موكبي ... الى غاية تحتج روحاً وتوجيها
وفي ذكرياتي للأحبة سلوة ... لقلب له لم يلق سلوى وترّفيها
اخي آه ما أحلاك للنفس غنوة ... إذا ما انتشت بالحب نفسي اغنيها
أناجيك والنجوى انطلاق مشاعر ... مغللة ، ذكر الأحبة يشجيها
أناجيك والنجوى عواطف شاعر ... تقومها ذكرى هواك فتغليها
تناجيك نفسي وهي تحسب نفسها ... بأنك رغم البعد عنها تناجيها
تناجيك والآلام تلجمها فلم ... تفه ، ولجام الرعب يربط في فيها
ولكنها ذكراك بثت بروحها ... نشاطاً فراحت تستعيد أغانيها
فعش للاخا ، والحب ، والفضل ، والعلا ... ودم لي دنيا ، لا تحد معانيها

وفي كتابي (هكذا عرفتهم) الذي يشير اليه الهاشمي في رسالته ذكريات عن أيام النجف ومجالسها ، وبعض الأعلام الذين كانوا يحكون جانباً من حياة هذه المدينة ، وقد قال لي غير واحد من غير النجفيين بأنه لم يقرأ جزء من هذا الكتاب إلا وتراءى له أنه يعرف هذا البلد ويعرف هؤلاء الذين يعرض هذا الكتاب لجانب من حياتهم فيبكي ، ولا أعرف مدى حقيقة هذا القول ولكنني سمعته من كثير ممن لا يعرف النجف ولا يعرف اولئك الأعلام الذين ورد ذكرهم في الكتاب فكيف إذا كان القارىء نجفياً ، وشاعراً مرهف الحس كالسيد محمد جمال الهاشمي .

ولم يكتف الهاشمي بالإشارة الواردة في رسالته عن هذا الكتاب بل أرسل لي هذه الارجوزة التي يعبر فيها عن أحاسيسه بعد أن قرأ الجزء الأول من (هكذا عرفتهم) يقول فيها :

«تحية أخوية ـ هذه تعليقة عابرة علقها قلمي على كتابك الرائع (هكذا عرفتهم) أهديها لذوقك ، فتقبلها من أخيك الهاشمي :

ان كنت (هكذا عرفتهم) فما ... عرفت إلا الذوق في الصحب نما
أخوّة الذوق لها الفضاء ... تندك في آمادهِ الآراء
عرجت في سمائه الوسيعة ... تلقط منها صور الطبيعة
تدرس منها لغة النفوس ... فتعرف المجهول بالمحسوس
دراسة الأديب للأفكار ... دراسة الحكيم للأسرار
يظهر منها ما على العين اختبى ... ليلمس القارىء منها السببا
فربما يبتسم الكئيب ... وربما ينحرف الأديب
لكل مظهر من الأوضاع ... فلسفة رائعة الابداع
فمظهر الانسان عن مخبره ... يحكي ، يراه العقل في مجهره
فهذه الظرافة المحببة ... تخبر عن نفسية مكتئبة
يحاول الانسان تخفيف الألم ... عن نفسه في حركات تنتظم
وربما بني عن ارتياح ... فاض به تفتح الأرواح
فالقصص التي رويتها لنا ... مظاهر على معان تبتنى
لهؤلاء السادة الأفاضل ... (مشاكل) مكنونة في الداخل
تظهرها مجالس المسامرة ... في نكتة أو ضحكة أو بادرة
يقرأ منها العارف المستبصر ... فصلاً من الحياة لا يحبر
أحسنت في تسجيلها كثيراً ... خدمت فيها الأدب المهجورا
والسبقري يقرأ المطموسا ... فأنت تحكي فيه جالينوسا

ولربما حملت هذه الأرجوزة بعض الاخوان على أن يعلقوا على (هكذا عرفتهم) بالشعر حين وجدوا هذه الأرجوزة منشورة في احدى الصحف اليومية ببغداد ، فقد جاءني من غير واحد مثل هذه التعليقة ، ومنهم المحامي الصحافي والأديب القصاص أنور شاوول فقد نشرت له احدى الصحف هذه الأبيات يقول فيها (الى . . . جعفر الخليلي ، بمناسبة صدور كتابه الأخير «هكذا عرفتهم» ويعنون أبياته بهذا العنوان) : هكذا عرفتك ويقول :

كم من يد اسديتها يا جعفر ... بالأدب الحي الذي تسطر
بالقصص الرائع ، بالشعر زها ... كأنه زهر الربى ، بل أنضر
بالخلق الرضي تضفيه على ... من يشكر الفضل ومن لا يشكر
فكر وشعر ، وحديث شائق ... وحكمة رائعة تدخر

ويتحسس القارىء بالفراغ الذي بدأ يحس به الهاشمي بعد انتقالي من النجف الى بغداد بهذا المقطع من احدى رسائله التي يقول فيها :

«أسأل الله أن يرعاك بعنايته أينما كنت ، وأن يفيض عليك لطفه أينما حللت ، لقد انقطعت أخبارك عني وكأني أعيش في دنيا غير دنياك ، مع ان عواطفي ومشاعري تلتهب بذكرياتك ، ومذكراتك ، فكل شيء جميل يذكرني بك ، وكل طريفة في الحياة التي أعيشها تشير اليك وكأنك الأنموذج الجمالي الملذ لهذه الحياة المليئة بالمشجيات» .

ولما كان قد بلغ مكانة مرموقة بين العلماء الروحانيين ، وكان من أئمة الصلاة المعروفين بالتقوى ، والايمان ، كتب لي مرة في ختام احدى رسائله ما يلي :

«. . . .وأنا لا أنساك من دعائي ، وهو كل ما حصلت عليه في حياتي ، كما لا ينساك قلبي وحبي» .

ولعل الهاشمي من أكثر المتتبعين إن لم يكن أكثرهم لما كنت أكتب من مقالات وأصدر من كتب أو ألقي من محاضرات في بعض المناسبات . وكان يعبر لي بلسانه عما كان يحس به من أثر ، وحين انتقلت الى بغداد صار يبعث لي بآرائه في رسائل متتابعة ، وكم كان يرسل لي برأيه منظوماً ولا يكلفه النظم إلا شيئاً قليلاً من الوقت ، وقد سبق لي أن أشرت الى ذلك ، ولذلك كان شعره بسبب هذه السرعة غير مطبوع بطابع واحد ، ولون ثابت ، فكما ان له من الشعر أجوده بكل معنى الكلمة فإن قسماً من شعره إذا لم يكن من الشعر الاعتيادي فهو دون شعره الذي حلّق واشتهر باجتذاب القلوب ، وهو حين أتم قراءة (أولاد الخليلي) وهو مجموعة قصص سميتها بأولادي من باب المجاز كتب لي الهاشمي الرسالة التالية :

«. . . . الآن فرغت من إعادة قراءة كتابك الجليل (أولاد الخليلي) هذا الكتاب الذي يجب أن يقرأه كل انسان ، لأنه كتاب لتوجيه قوى الانسان الى أهدافه التي يتوخاها بانسانيته ، ومن المؤسف ان تكون طباعته رديئة في حين نعيش نحن في عصر تقدمت بل حلقت فيه وسائل الطباعة الى أبعد الحدود .

إن مؤلفاتك كلها نماذج انسانية يعتز فيها العقل والتفكير ، كما ترحب بها العاطفة والشاعرية ، وكم كنت أفيض بهجة وانشراحاً بمطالعة مقالة ، أو نقد ، أو قصة لك ، وها أنا ذا بعد أربعين سنة أعود الى ما قرأته قبل نصف قرن ، وإذا به يؤثر في نفسي كما كان يؤثر فيها منذ نصف قرن .

إن رسائل العظماء متوجة بالعظمة في كل عصر ، وما زال سقراط ، وابن سينا ، والجاحظ ، والغزالي ، والسيد الرضي ، وصدر الدين الشيرازي ، والبهائي ، والداماد ، والشيخ الأنصاري ، هؤلاء الأعلام وأمثالهم لهم مكانتهم العلمية ، والأدبية تخشع لها العقول والأفكار ، وان المؤلفات الأدبية الاجتماعية على اختلاف عنواناتها ، لها حرمتها ومكانتها» .

وكثيرة هي شواهد تعلق (الهاشمي) بي بانت في رسائله وشعره وما كان يغدقه عليّ من محبته ، ومغالاته فى مغالاة لا أجدني أهلاً لها فقد جاء في احدى رسائله قوله :

«كنت ولا أزال أعتقد بأنكم الفرد المنتخب في الصدق والصفاء والوفاء وقد صاحبت كل طائفة من طوائف المجتمع ، واتخذت لي أصدقاء من سائر طبقاته ، فما رأيتهم إلا أبناء النفع الذاتي ، لا يعيرون الصالح العام ولا صالح الصديق المخلص أي اهتمام إلا بمقدار المنفعة الشخصية» .

ولم يزل الرجل يذكرني في كل مناسبة ، ويغدق عليّ معروفه ، ويذكر أيام النجف بشيء كثير من التجلة ، ويحن الى الأدب بالرغم من انقطاعه عنه وانصرافه الى العلوم الدينية والسير في طريق الاجتهاد ، وقد نشرت ذات يوم جريدة (الأخبار) البغدادية بمناسبة أحد الأعياد قصيدة يهنئني فيها السيد محمد جمال الهاشمي وقدمت الأخبار لها هذه المقدمة :

«تلقى جعفر الخليلي بمناسبة العيد طائفة من المعايدات الأُخوانية وفي ضمنها عدد مضمخ بالنفحات الأدبية كان من بينها هذه القصيدة الفياضة بالعاطفة التي جادت بها قريحة سماحة الأستاذ السيد محمد جمال الهاشمي ، وسماحة السيد الهاشمي هذا من العلماء المرموقين ومن رجال الفقه المعروفين ، والى جانب ذلك كله فهو شاعر ومن كبار شعراء العربية ، وقد آثرنا نشر قصيدته هذه كنفحة من نفحات العيد الأدبية» .

«أخي . . . جعفر الخليلي دام سعيداً»

يسرني أن أقدم لك في هذه الأيام الهنيّة هذه العواطف الأخويّة آملاً أن تتقبلها عيديّة :

تهدى لجعفرها التحية ... روح تذوب مع الهدية
روح نمت في ظله ... ولهى بسدنياه النقية
دنيا العواطف واللطائف ... والهوى والأريحية
ما زلت في ذكرى مفاتنها ... أغذي الشاعرية
ذاب الشباب بها ليصبح ... شمعة الفن المضية
ذاب الشباب بها ليخلد ... في جنائنها الزكية
شعر أرق من الحياة ... ومن مباهجها الندية
اني رأيت الود يبسم ... في معانيها الشذية
وسمعت موسيقى النبوغ ... بها ولحن العبقرية

* * *

يا ذكريات صباي يا ... حلمي ودنياي الشهية
مهما نسيت فلست انسى ... فيك أيامي الرضية
أيام كنت بها أحلق ... في السماوات العلية
يقتاد موكبي الشباب ... الى مقاصده الهنية
دنياي أضواء ترف ... هوى ، وانغام سخية
ومجالس فيها الحياة ... تموج بالطرف الثرية
وحياة (جعفر) وهي ... طاقات الحياة المعنوية

منهـا اكتسبت الفـن تنبض روحـه بـالألمـعـيـة
روحـي ومـا زالـت عـلى رغـم السنـين بهـا فتيـة

* * *

أأخي ، عيـدك بـاركنـه الـبشريـات الـعـاطـفـيـة
يهنى بـه وبكـل عـمـرك طـال عـمـرك يـا أُخيَّ
واقـبـل تحـيـة مخـلص لـك ذاب شوقاً في التحية

النجف الأشرف : محمد جمال الهاشمي

ومن هذا الكثير الذي ما يغدقه عليّ من عواطف بعد ان انقطع وأصبح غير مستباح له في عرف الناس ما دام قد هيأ نفسه لشغل المكانة الروحانية قصيدة يبثني فيها آلامه وأحزانه ، وما سبب هذه الآلام والأحزان لأنه أصبح مقيداً بالقيود التي يفرضها عليه المجتمع فلم تعد له صلة بأولئك الذين كانت تأنس بهم روحه ، وينشرح بمجالسهم صدره ، ويعود فيغالي فِيّ أنا ويلبسني اللباس الذي لا أستحقه ، وينسب لي بث تلك الروح الأدبية في نفسه فيقول في احدى قصائده التي بعث بها إليّ وأنا ببغداد :

قـطرات من دمـوع الحب سـالـت في كـتـابي
عـبرت عـن مـوج آلامي وطـغـيـان عـذابي
خـامـرتهـا صـبنـوات مـن شـجـوني واكـتئـابي
كنت أرجـو حينما تقـرأهـا تـلمس مـا بي
وتـراني رغـم بـعـدي قـابـتـعـادي كـاقـترابي
أنـا قـد أخـلصـت في حبـك من عـهـد شبـابي
وعـلى أفـقـك آمـالي شـعّـت ورغـابي
وبـه قـاومـت اعـصـار جـنـوني وانـقـلابي
هـادىء لم يـطوني الـلج بـأحـضـان الـعـبـاب
لي مـن الحـب قـوى تصرع خـوفي وارتـيـابي
تحـسب الـيـقـظة طـيـفـاً فشرابي كسرابي
انـثر الـورد ولـلأشـواك وخـز في تـرابي
أقـبس الـنـور ولـو ضـمّ بـلـيـون حـجـاب
اطـرد الـيـأس ولـو أقـفـل دوني كـل بـاب
أنـا انـسـان الى الحـب انـتـمائـي وانـتـسـابي
وبـعـطر الحـب أغـرقـت سـهـولي وهـضـابي
فـلذا واجهـت من أخـشـاه مـن دون نـقـاب
لي مـن الحـب سـلاح لم يخـن فـيـه ضرابي
يـصـدع الحـقـد ولـو لاذ بـأذيـال الـسـحـاب

* * *

ياخليلي ان تكن أغضبت عن رد جوابي
فلك العذر وحبي ان في الحب حسابي
محمد جمال الهاشمي

وانه والله كما قال ، كان أبعد ما يكون عن الدجل والرياء ، وكانت المحبة محبة الانسان لأخيه الانسان تغمر قلبه ، وكان كريم النفس وقد رأى ذات يوم زميلاً له من الطلاب الغرباء يلبس قباء صيفياً في الشتاء ، ولم يكن الهاشمي بأسعد حالاً منه يومذاك ولكن شتاءه من حيث الملبس كان أجود من ذلك الزميل ، ونزع الهاشمي في البيت قباءه الشتوي ، ولما لم يكن له بديل شتوي عنه لبس هو الآخر قباء صيفياً وجاء بالقباء الشتوي الى زميله الطالب ومن حسن الحظ كان الحجم يلائم هذا الطالب ولم يحس بتغيير لباسه أحد ، فقد كان الهاشمي كريم النفس يسره كثيراً ان يتناول أحد عنده العشاء أو الغداء وكان بعض الاخوان يستغلون هذا الكلام منه فيدعون أنفسهم عنده ، فيسعى جهد طاقته ان يوفر لهم ما يشتهون يوم كان في حال لا يحسد عليها فكان مديناً للبقالين ، والبزّازين ، وباعة السكر والشاي الذين يسمونهم بالعطارين وحين شمله الرخاء بعض الشيء بفضل ما كانت تمده به المراجع الروحانية العليا وبما يصل اليه من مريديه من الحقوق الشرعية ، صار كرمه لم يقتصر على دعوة الأصدقاء أو دعوتهم أنفسهم عنده بل صار يهب ما كان يصل اليه من الهدايا .

من الغريب انه كان هو واخوانه أقل انتفاعاً من أبيهم يوم كانت تصل اليه كمرجع أعلى لحقوق الشرعية الوافرة ، فقد كان الأب السيد جمال الدين حريصاً كل الحرص على ان يخص الذين يعتقد بعوزهم بالانفاق عليهم من طلاب العلم وغيرهم من المعوزين ومن صفاته انه كان لا يدخر شيئاً مما يصل يده وكان يعتقد بأن العيش الكافي موفور لأولاده فلماذا يفضلهم على غيرهم ، وحين توفي خلف ديوناً عليه دفعها مقلدوه واتباعه من التجار الايرانيين في ايران .

* * * * *

والذين جاءتهم الشهرة ككتاب ، وشعراء ، وقصاصين ، عن طريق جريدة (الهاتف) ومعظمهم ينسب نشأته الأدبية (للهاتف) وقد يفاخر بها ، ولكن (الهاشمي) كان أكثر اولئك تفاخراً وتباهياً ، وهو يعلن ذلك في كل مناسبة ويتجاوز حدود المبالغة والمغالاة في ذكر صاحب (الهاتف) مستمداً كل ذلك من الوفاء الذي جبل عليه ، وهو وفاء قلّ نظيره بين محبي الهاتف وصاحبه .

ولم يسعني تلبية طلبه المكرر في زيارة النجف على رغم كثرة مواعيدي له ولغيره كما لم تستدعه الحاجة لزيارة بغداد لذلك لم أعرف شيئاً عنه أكثر من أنه مشغول بطلابه ومحاضراته ، وما تقتضيه الأحوال كإمام جماعة ، ومجتهد وقبل وفاته ببضعة شهور جاء من يخبرني بأن السيد محمد جمال الهاشمي في مستشفى الجيجي في الحارثية ، وانه دخل المستشفى منذ يومين ، فخففت اليه ، وكم سرني ان وجدته في تمام الصحة والعافية ، وقد قام من سريره واحتضنني وأشبعني قُبلاً ولم تكن شكواه إلا من رجع في ساقيه كان من الصعب عليه السير ماشياً الى الصلاة ، أو حضور مجلس تأبين ، وتعزية ، وما شاكل ولما يئس من جدوى المعالجة في النجف جاء الى بغداد للإفادة من الأطباء الاختصاصيين ، وقد دهشت حين وجدته مفرطاً في البدانة والسمنة ، ثم دهشت لما التف حوله من طلاب العلم

والمشايخ الذين يعنون به ، وهي علامة للعالم الروحاني الجليل ، وهنا تواضع فعرّفني لحاشيته بأنني ملهمه الأدب ، والباعث في نفسه هذه الروح الوثابة في دنيا الشعر يوم كان ينظم الشعر ، واستعرضنا في هذه ذكريات الماضي ، وحنّ كلانا الى تلك الأيام التي كان (الهاتف) يجمعنا ليلاً ونهاراً ، وقال انه يتتبع أخباري أينما سرت وسألني عما إذا كنت قد رأيت الشيخ محمد الشريعة في أثناء دعوتي الى الباكستان في خريف ١٩٧٥ بمناسبة مرور سبعماية سنة على وفاة الشاعر الاسلامي الخالد امير خسرو ، فأجبت بالايجاب وحدثته بما عرفته عنه ، وقلت له انه كان كما نعرفه لم يتبدل ولم يتغير ، فهو على انه المرجع الديني الأفضل للشيعة في الباكستان فلا يزال بتلك الروح من اللطف والظرف والبشاشة ، والبعد عن الدجل والرياء ، وذكرت له انني كنت في مجلسه حين جاءه رجل من الباكستان وقد ألّف كتاباً عن (الأعور الدجال) يثبت فيه بموجب مائة وعشرين حديثاً وسنداً خروج الدجال من أصفهان وهو راكب حمار ويروث تمراً والناس يركضون وراء حماره مؤمنين به ، وقد صدّر كتابه هذا عشرات المؤيدين من رجال الدين في الباكستان كتصديق خبر ظهور الدجال ، وهو أي المؤلف ترجى من الشيخ محمد الشريعة ان يسجل تأييده كما فعل العلماء الآخرون ، فقال به (الشريعة) ان وصفك لحمار الدجال هو الذي يكذب الخبر ، فلو صحت الرواية بان يكون هناك دجال اعور سيظهر ذات يوم من اصفهان له حمار اقول لو صحّت الرواية يقول (الشريعة) لروّث هذا الحمار قطعاً من (من السماء) وهي الحلاوة التي عرفت بها اصفهان أما التمر فيجب ان تروثه حمير البصرة ، والحلة وضحكت انا وضحك من كان في مجلس الشريعة ، بكراجي وخرج هذا المؤلف من عنده شاعراً بسخرية الشيخ منه ، وقد بانت علامات الخجل على وجهه .

وجرنا الحديث الى الباكستان والهند ، وقال (الهاشمي) غفر الله (لانديرا غاندي) فقد غيرت رأي في رقة المرأة وعاطفتها ، وما عرفت به من صفاء النفس والمحبة ، حين شنت حملتها على الباكستان ، فقتلت النفوس ، وهدمت البيوت وشردت الآمنين الساكنين ، ويتمت الأطفال ، وأحرقت الحرث والنسل متباهية بأن لديها من القوة ما تستطيع بها ان تغير معالم الأرض ، وكان الأجدر بها ان توجه هذه القوة الى مكافحة ملايين الملايين من الجرذان التي تأكل حاصلات الهند الزراعية ، والتي تحرّم التعاليم الدينية الهندية قتلها ، والأجدر بها ان توجه هذه القوة لتبيد بها الحشرات التي تنقل الجراثيم وتنشر الأمراض في الهند مما لا تبيح لها ديانتها قتلها في حين تبيح لها قتل الناس ، وتشريدهم ، وتهديم بيوتهم بأكثر مما تفعل الزلازل والبراكين .

قال ولقد هاجني اعتداء (انديرا غاندي) هذه التي لا تجيز لنفسها قتل الحشرات في حين تجيز قتل الانسان فنظمت قصيدة لكي أهديها لك ، ولكني لم أتمها بعد ، وعند رجوعي الى النجف سأبحث عما نظمت وأتمه وأبعث به اليك ، ولعله نسي ذلك ونسيت أنا أن أذكّره بالقصيدة حين عاد الى النجف .

وزرته في المستشفى غير مرة وقل وجع رجليه بفضل المعالجة ، أما الدكتور كاظم شبر الجراح الاختصاصي فقد زاد على آراء الأطباء الذين عالجوه بأن أوصاه بوجوب اتباع نظام خاص يضمن له نزول وزنه العشرات من الكيلوات خلال السنتين المقبلتين ، فقال الهاشمي ، انه لا يقدر على هذا ، فقال الطبيب اذن فالمسألة خطيرة ليس على ساقيك وإنما على قلبك في الدرجة الاولى .

كان هذا قبل وفاته ببضعة شهور ، وفي ذات ليلة من أوائل شهر آذار ١٩٧٧* اتصل بي العالم محمد جواد السهلاني وأخبرني بأن الهاشمي توفي بالسكتة القلبية وهو في طريقه الى الصلاة بالناس ، كان ذلك في الليل وفي الوقت الذي دعيت فيه للعشاء فاعتذرت عن تناول العشاء ودخلت غرفة منامي ولكن لا لأقرأ وأنام كالعادة ، وإنما لأذوب في ذكرى تلك الأيام التي مرّت كما تمر الأحلام ولأمعن النظر أكثر وأتعمق في ماهية هذه النفس الطاهرة ، وما جبلت من الطيبة ، ثم بكيت ما شاء الله أن أبكي ، ثم انتبهت لنفسي ، ورحت أفكر مرة اخرى في عوالم أبعد وأعمق ، ثم عدت الى البكاء ، وقضيت معظم ليلتي على هذه الصورة . .

* توفي يوم الاثنين ٢٩ محرم ١٣٩٧ (١٩٧٧م) وشُيع جثمانه الى مقرة الأخير في النجف الأشرف في ١ صفر ١٣٧٧هـ .

وما ادراك ما الكوفة ؟

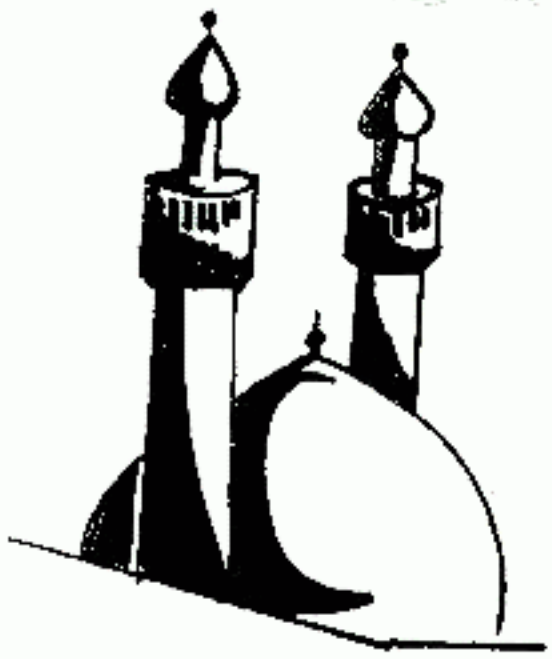

● «ما اشد بلايا الكوفة . . !
لا تسبّوا اهل الكوفة . .
فوالله ان فيها لمصابيح الهدى ،
ومتاع الى حين . .
والله ليدقق الله بهم جناح الكفر . .
لا تنتخبوا ابداً غير : مكة حرم ابراهيم
والمدينة حرم رسول الله
والكوفة حرمي
وما من مؤمن إلّا وهو من اهل الكوفة . .
أو هواه ينزع اليها . »

● «الكوفة جمجمة الاسلام ، وكنز الايمان . .
وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء . .
وايم الله ليتصرن الله بأهلها في مشارق الارض ومغاربها كما انتصر بالحجارة . »

● «كأني بك يا كوفة تُمدين مدُ الاديم العكاظي ، تعركين بالنوازل وتُركين بالزلازل ، واني لأعلم انه ما اراد بكِ جبارٌ سوءاً إلّا ابتلاه الله بشاغلٍ أو رماه بقاتلٍ . »

(الامام امير المؤمنين عليه السلام)